المدارس الطبية في الحضارة الإسلامية

من 1-9هـ / 7-15م

زكية بالناصر القعود

حظيت المدارس الطبية باهتمام كبير في الحضارة الإسلامية، فأنشأت العديد من المدارس إلى جانبها اهتمامها بالمدارس الطبية القديمة، وكان ازدهار المعارف الطبية بها دليلا على التطور الحضاري الذي وصلت إليه الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى.

وقد مر تعليم علم الطب في الحضارة الإسلامية بثلاث مراحل هي:-

المرحلة الأولى : كان تعليم الطب في الدولة الإسلامية في القرن الأول الهجري يتم في المدارس الطبية القديمة مثل إنطاكية الرُها و نصبين وجند

يسابور، حيث أسند المسلمون إدارتها بعد السيطرة عليها إلى الأعاجم، وكانت الأخبرة يتولي إداراتها آنذاك الطبيب "فرات بن شحتانا"(1) أحد تلاميذ "تياذوق"، طبيب "الحجاج بن يوسف الثقفي" حينما كان واليا على العراق. ومن هذه المدرسة تخرج أعداد من الأطباء النصارى.

من الملاحظ على المسلمين في هذه الفترة أنهم لم يقبلوا على تعليم الطب بشكل يذكر، بل نستطيع أن نقول أنهم أعرضوا عنه، ولعل هذا يرجع إلى اعتقادهم بكفاية ما عندهم من خبرات ومعلومات طبية ورثوها عن مشايخهم، أو لأنهم في غير حاجة إلى كسب الرزق بهذه الصناعة ترفعا وأنفة، أو لأنهم أقبلوا على العلوم الدينية بقوة، وتنافسوا فيها. ومصداق ذلك أن أغلب الأطباء المسلمين الذين أتوا بعد القرن الثاني كانوا ملمين بأكثر من علم، وربما كانوا يجمعون مع علم الطب علم الفلسفة والمنطق والحديث والفقه والحكمة، ولا ريب أنهم كانوا على خطأ في انصرافهم عن علم الطب ردحا من الزمن، مما حرمهم من كثير من المزايا التي تمتع بها الأطباء النصارى، كتقلد المناصب الكبيرة في دواوين الخلفاء، فالمنصور مثلا استخدم طبيبا نسطوريا من جنديسابور وجعله طبيبا ملكيا لدار الخلافة، وهذا الطبيب هو "جورجيس بن جبرائيل"(2).

المرحلة الثانية : تبدأ من القرن الثاني للهجري حيث أنشأ الخليفة المنصور دارا طبية عهد بإدارتها إلى أطباء نسطوريين(3)، وكان أشهرهم جورجيس الذي مارس فيها إلى جانب مهنة التطبيب مهمة التدريس والتعليم، ثم تولى إدارتها من بعده الطبيب عيسى بن شهلا أحد تلاميذه(4) وبختيشوع في زمن هارون الرشيد (171 هـ/787م) وابنه جبرائيل الذي جعله الأخير بعد اختباره رئيسا للأطباء في بغداد. و يكمننا القول بأن هذه الدار كانت أول مدرسة طبية عربية إسلامية، أخذت في النمو والتطور حتى أصبحت فيما بعد تعرف بمدرسة بغداد.

ومما يذكر أن الأطباء كانوا يجتمعون في دار عيسى بن علي لدراسة الحالات التي تعرض عليهم في الدار، حتى يصلوا إلى معرفة العلة والعلاج، كما كانت الدار تضم عدداً من التلاميذ الذين يرغبون في دراسة الطب، من بينهم إبنا "لداؤود بن سرابيون" الذي لم يتجاوز العشرين من عمره(5). وكذلك كان ممن تولى رئاسة مدرسة بغداد الطبية "يوحنا بن ماسوية"، حيث يذكر أنه كان يعقد بداره مجلسا طبيا يجمع فيه عدداً كبيراً من الأطباء لمناقشة الموضوعات الطبية، وفي هذا يقول يوسف إبراهيم:

"كان مجلس يوحنا بن ماسويه أعمر مجلس كنت آراءه بمدينة السلام لمتطبب"(6) وكان لهذه المناقشات والمشاورات أثر كبير في النهوض بصناعة الطب. وكان هذا المجلس يحضر إليه العديد ممن الطلبة الذين يرغبون في مهنة صناعة الطب.ـ لعل هذا النوع من المجالس كان بداية المدراس الطبية الخاصة التي ستأتي.

ومن الأطباء النصارى أيضا "حنين بن إسحاق" وهو أحد تلامذة يوحنا بن ماسويه، وهو طبيب ومترجم ذاع صيته بين معاصريه من الأطباء، ترجم العديد من الكتب الطبية من اللغة اليونانية والسريانية إلى اللغة العربية توفي سنة (194هـ/ 809م) ومن تلاميذ "عيسى بن علي" الذي تولى رياسة البيمارستان في بغداد(7).

ويلاحظ أن أكثر الأطباء في تلك الفترة (القرن 1-2 هـ) كانوا من النساطرة، والسبب في ذلك كما أشرنا من قبل يرجع إلى عدم اهتمام المسلمين أول الأمر بصناعة الطب، غير أنهم لم يلبثوا على ذلك إلا قليلا من الوقت، ثم أخذوا يشتغلون بالطب ودراسة كتبه، فنبغ منهم من فاق جميع أطباء النساطرة، وكان الخليفة المعتصم يشجع الأطباء بما يحتاجون إليه

لتطوير علومهم، فيذكر أنه كان يستجلب القردة من النوبة(8) ويقدمها إلى يوحنا ين ماسويه وغيره، لتشريحها ومعرفة الأعضاء الداخلية، مما ساعدهم على فهم وإدراك الكثير من الحقائق التي قد تؤدي إلى تشخيص سليم لكثير من الحالات المرضية لوصف العلاج المناسب لها.

أما المرحلة الثالثة فقد بلغ الطب العربي الإسلامي في القرن الثالث الهجري الذروة، وهذا يرجع إلى تقدم العقلية العربية، بعد أن قطعت شوطا كبيرا في حركة الترجمة بالاطلاع على علوم الأمم الأخرى، والتي بدأت باستحياء في عهد والي مصر خالد بن الوليد الأموي، وتقدمت قليلا في أول قيام الدولة العباسية، ثم نشطت وازدهرت في عهد الخليفة هارون الرشيد وأبنائه، ففي هذه الحقبة أصبح الطب العربي الإسلامي ذا شخصية متميزة، حيث أسهم الأطباء المسلمون بإساهامات جليلة في هذا العلم، مردها إلى اتباعهم المنهج العلمي في تقصي الحقائق، منها (الاستقراء، التجريبي، النقدي). ومن أبرز الشخصيات الطبية في هذه المرحلة الرازي أحد تلاميذ الطبيب "علي بن ربن الطبري" صاحب كتاب "فردوس الحكمة".

* مسيرة النهضة الطبية :

مرت الحضارة الإسلامية بثلاث مراحل هامة، المرحلة الأولي كانت تمثل عصر الترجمة الذي بدأ في منتصف القرن الثامن للميلاد في مطلع العصر العباسي حتى نهاية القرن التاسع، وهذا هوعصر الترجمة. وفي المرحلة الثانية كان تفاعل الأجنبي الوافد مع الفكر الإسلامي الأصيل، فكانت الأصالة والجدة والابتكار خلال القرنين الرابع والخامس لهجري / العاشر والحادي عشر الميلادي. وفي المرحلة الثالثة كانت حالة التدهور والضمور، وقد بدأت في القرن الخامس والسادس الهجري / الحادي عشر و الثاني عشر الميلادي فقد استولى المغول على بغداد مدينة العلم والطب عام 1258م وحولوها إلى كومة من الخرائب وألقوا بآلاف ا المخطوطات في مكتبة بغداد إلى نهر دجلة حتى شكلت جسرا يعبر عليه المشاة.

ففي المرحلة الأولى بدأت حركة من أوسع حركات الترجمة في تاريخ البشرية، وفيها نقل المسلمون تراث الحضارات القديمة (من فارس والهند واليونان)، وقد اهتموا بالطب وعلومه، وازدهر خاصة في عهد الدولة العباسية، فكان من مظاهر تقدم الطب في عهد الدولة العباسية بروز عدد

من الأطباء العرب المسلمين كزكريا الرازي (ت 252هـ) وكان رئيس الأطباء في بيمارستان المدينة، ومؤسس بيمارستان بغداد، وتولى رئاسته.

والغربيون من مؤرخي الطب من أدور وكامبل وبراون ووليم أوسلو وجاريسون يعدونه أعظم أطباء عصره من غير منازع لصناعة الطب، وأعظم كتبه كتاب الحاوي (الجامع الحاضر) وهو دائرة معارف ضخمة جدا يتضمن تاريخه في العلاج العملي في المستشفيات، وقد ترجم عدة مرات إلى اللاتينية.

* المدارس الطبية (في البيمارستانات)

أولا المدارس الطبية العامة :

ظهرت العديد من البيمارستانات التي كانت تضم قسما لتدريس الطب (ما يسمى اليوم بالكلية الطبية). كان طالب الطب يتلقى فيها علوم الطب نظريا وعمليا. يتعلمون ما قاله أبقراط وجالينوس، وما جاء به أساتذتهم العرب أنفسهم، وكانت التجربة العملية تسير جنبا إلى جنب مع العلم، وكانت

النظريات الطبية تطبق على المرضى، أما الحالات المستعصية فكانت تحال إلى الأطباء الكبار الذين يعقدون حولها حلقة دراسية معهم طلبة الطب، والأطباء الصغار. ثم بعد ذلك يصفون العلاج للمريض، وهذه الطريقة هي ذاتها المتبعة حتى الآن في تدريس الطب بالجامعات.(9)

وكانت هذه المدارس تابعه للبيمارستانات الكبيرة العامة منها، حيث كان لكل مدنية كبيرة في الدولة الإسلامية بيمارستان عام واحد، ينقسم إلى قسمين، قسم خاص بالرجال وآخر بالنساء، وكل قسم مجهز بما يحتاج إليه من آلات ومعدات وخدم وفراشين من الرجال و النساء، وفي كل قسم قاعات لمختلف الأمراض، وكما يضم صيدلية، وله رئيس يسمى ساعور البيمارستان، ولكل قسم من أقسامه رئيس، فكان فيه رئيساً للأمراض الباطنة، ورئيساً للجراحة ورئيساً للكحالين، وجهز كل بيمارستان بمكتبة تحتوي عددا من المخطوطات المفيدة، وقاعة كبيرة مفروشة للتدريس(10).

ومن هذه المدارس الطبية العامة، المدرسة الطبية التابعة للبيمارستان العضدي في بغدا،د الذي حوى في بدء عهده ما يقرب من أربعة وعشرين طبيبا، وكان من جملتهم أبو الحسن بن علي بن إبراهيم، الذي كان ماهرا في علم الطب والترجمة، ونقل كتبا كثيرة إلى العربية، وكان يدرس في

البيمارستان العضدي(11) وأبو ح الفرج عبدالله بن الطيب، الذي اعتنى بشرح جالينوس في الطب في البيمارستان العضدي، وعالج المرضى فيه، وأمين الدولة بن التلميذ الذي كان ساعور البيمارستان إلى حين وفاته، وغيرهم كثير(12).

ومن البيمارستانات الطبية، البيمارستان الكبير النوري الذي بناه نور الدين محمود بن زنكي بدمشق سنة (549هـ / 1154م)، وأوكلت رئاسته إلى أبي المجد بن أبي الحكم بن عبيد الله بن المظفر بن عبد لله الباهلي، يقول ابن أبي أصيبعة: "كان يتردد إليه ويعالج المرضى فيه، وكان أبو المجد بن أبي الحكم يدور عليهم ويعتبر أحوالهم ويتفقد أمورهم، وبين يديه المشرفون والقوّام لخدمة المرضى، فكان جميع ما يكتبه لكل مريض من المداواة والتدبير لا يؤخر عنه ولا يتوانى في ذلك". ثم قال: "وبعد فراغه من ذلك وطلوعه إلى القلعة، وافتقاده المرضى من أعيان الدولة، يأتي ويجلس في الإيوان الكبير الذي بالبيمارستان، وجميعه مفروش، ويحضر كتب الاشتغال، وكان نور الدين رحمه الله قد وقف على هذا البيمارستان جملة كتب من الكتب الطبية، وكان في الخرستانين اللتين في صدر الإيوان، فكان جماعة من الأطباء والمشتغلين يأتون إليه ويقعدون بين يديه، ثم تجرى

مباحث طبية، ويقري التلاميذ، ولا يزال معهم في دراسة ومباحثة، ونظر في الكتب مقدار ثلاث ساعات"(13).

والبيمارستان المنصوري في القاهرة الذي بناه السلطان قلاوون (683هـ / 1284م) من الأطباء الذين عملوا به أحمد بن يوسف بن هلال بن أبي بركات، وشهاب الدين الصفدي الذي توفي سنة (727هـ / 1326م) وركن الدولة أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن يوسف بن عبد الرحمن بن الجليل الجعفري التونسي الذي توفي سنة (738هـ/ 1337م)، وعمر بن منصور بن عبد الله سراج الدين البهادري، كان يدرس الطب بالبيمارستان ابن طولون توفي سنة (824 هـ / 1420م) وغيرهم كثير.(14).

أما الاطباء الذين كانوا يدرسوا في البيمارستان النوري أو العتيق بحلب، عدا ابن بطلان هاشم بن محمود بن السيد ناصر الدين السوجي الحسيني رئيس الأطباء به (ت 964هـ / 1556م)(15). كذلك الحال في المغرب وفي الأندلس، حيث كانت المدارس الطبية تابعة للبيمارستانات، فعلى سبيل المثال، كان في الأندلس في عصرها المزدهر أربع مدارس للطب، إحداها في قرطبة، والثانية في إشبيلة، والثالثة في طليطلة، والرابعة في

مرسية(16). ومما يؤكد على تعدد البيمارستانات التعليمية في الدولة الإسلامية قول ماكس ما يرهوف: "ولدينا معلومات وثيقة لأربعة وثلاثين معهدا من المعاهد على الأقل كانت منتشرة في أنحاء العالم الإسلامي من بلاد فارس حتى مراكش ومن شمال سوريا حتى مصر"(17).

ومن هذا يتضح لنا ما وصل إليه المستوى الطبي في الدولة الإسلامية، فكان بحق عصره الذهبي، ففيه أنشأت البيمارستانات المتخصصة المنظمة تنظيما منقطع النظير، والمدارس الطبية التي فتحت أبوابها لكافة أبناء الشعب من الذين يجدون في أنفسهم الرغبة والمؤهلات اللأزمة، وكان التدريس فيها قائم على أساليب جديدة أتاحت لأساتذتها، وطلبها فرصة الإبداع والابتكار في هذا المجال، فكانت إسهامات جلية في هذا العلم. وكما نال الطبيب في ظل الدولة الإسلامية مكانة مرموقة وكرامة وغنى بين الخاصة والعامة آنذاك . ولعل مما شهد على قوة وازدهار الطب في العصر العباسي تقدم أكثر من تسعمائة طبيب للامتحان لنيل إجازة في عهد الخليفة المقتدر، وكان رئيس هذه اللجنة الطبيب سنان بن ثابث(18).

* ثانيا المدارس الطبية الخاصة

أما النوع الثاني الذي كان يمارس فيه تدريس الطب في الدولة الإسلامية المدارس الخاصة. ولعل أول من مارس هذا النوع هو يوحنا بن ماسويه في بغداد زمن خلافة أولاد الرشيد، الذي سبق الإشارة إليه في بداية حدثينا، ثم اشتهرت مدرسة الرازي وسنان بن ثابت بن قرة وابنه أبي الأشعث، وصارت هذه المدارس الطبية الخاصة نموذجا لغيرها، مما أسسه من تبعهم من مشهوري الحكماء كابن التلميذ ببغداد، وابن العين زربي بالقاهرة، والدخوار وابن أبي أصيبعه وابن القف في بلاد الشام(19). واجتذبت شهرتهم التلاميذ من بعيد وقريب، حتى نقرأ عن أفاضل من بلاد الأندلس والمغرب قطعوا المسافات الشاسعة عبر شمال افريقيا إلى بغداد والقاهرة والشام رغبة في زيادة خبرتهم في مزاولة هذه الصناعة، أو لينضموا إلى مجلس هؤلاء المعلمين الأفذاذ، وليستفيدوا من خبراتهم ومعرفة إضافاتهم وتعليقاتهم وشروحهم للتراث الطبي اليوناني والسرياني.

* المنهج المعتمد في المدارس الطبية :

* أولاً في المدارس العامة

أما الطريقة التي كان يدرس بها الأطباء في المدارس العامة بالبيمارستانات فنذكر بعض النصوص التراثية التي تكشف لنا كيفية التدريس، فمن هذه النصوص، النص الذي يقول فيه: ابن العباس في مقدمة كتابه الكامل: "ومما ينبغي لطالب هذه الصناعة أن يكون ملازما للبيمارستانات ومواضع المرضى، كثير المداولة لأمورهم وأحوالهم مع الأساتذة من الحذاق من الأطباء، كثير التفقد لأحوالهم والأعراض الظاهرة فيهم، متذكرا لما كان قد قرأه من تلك الأحوال، وما يدل عليه من الخير والشر، فإنه إن فعل ذلك، بلغ من هذه الصناعة مبلغا حسناً، ولذلك ينبغي لمن أراد أن يكون طبيبا أن يلزم هذه الوصايا، ويتخلق بما ذكرناه من الأخلاق، ولا يتهاون بها، فإنه إن فعل ذلك كانت مداواته للمرضى مداواة صواب، ووثق به الناس، ومالوا إليه، ونال المحبة والكرامة منهم والذكر الجميل. ولم يعدم مع ذلك المنفعة والفائدة من قبلهم والله تعالى أعلم"(20) ومن صور التعليم في المدارس العامة ما كان يقوم به أبو المجد بن أبي الحكم في البيمارستان النوري الكبير الذي سبق الإشارة إليه في قول ابن أبي أصيبعة عن نفسه: "كنت بعد ما يفرغ الحكيم مهذب الدين والحكيم عمران من معالجة المرضى المقيمين بالبيمارستان النوري، وأنا معهم أجلس مع الشيخ رضي الدين الرحبي،

فأعاين كيفية استدلاله على الأمراض، وجملة ما يصفه للمرضى ما يكتب لهم، وأبحث معه في كثير من الأمراض ومداواتها. ثم قال وكان معه (أي مهذب الدين) في البيمارستان لمعالجة المرضى الحكيم عمران، وهو من أعيان الأطباء وأكابرهم في المداواة والتصرف في أنواع العلاج، فتتضاعف الفوائد المقتبسة من اجتماعهما، ومما كان يجري بينهما من الكلام في الأمراض ومداواتها وما كان يصفان للمرضى"(21).

وقد ورد في كتاب المقالات الرابع النظامي عروض على لسان مؤلفه، وهو من علماء القرن الخامس الهجري: "ينبغي للأطباء أن يكونوا ذوي مزاج رقيق وطباع سلسلة وأحلام راجحة، وأن يكونوا بصفة خاصة رقيقي الملاحظة، قادرين على أن يفيدوا كل إنسان بالتشخيص المضبوط، أعني بسرعة الاستنباط للمجهول من المعلوم، ولن يستطيع طبيب أن يكون ذا طبيعة فلسفية راجح الحلم إلا إذا كان على علم بالمنطق، أو أن يكون دقيق الملاحظة، إلا إذا استمد القوة من هدى الله، أما من يكون غير صادق الملاحظة، فلن يستطيع الوصول إلى فهم أسباب أي عله فهما صحيحاً"(22).

* ثانيا في المدارس الخاصة

ولتوضح طريقة التدريس التي كان يجري العمل بها في هذه المدارس الخاصة، نذكر مثالا مدرسة الدخوارية كما يصفها لنا ابن أبي أصيبعه في قوله: "وكان الشيخ مهذب الدين رحمه الله إذا يفرغ من البيمارستان الكبير النورى، يأتي إلى داره ثم يشرع في القراءة والدرس والمطالعة. فإذا فرغ منه آذن للجماعة فيدخلون إليه، ويأتي قوم بعد قوم من الأطباء والمشتغلين، وكان يقرأ كل واحد منهم درسه، ويبحث معه فيه، ويفهمه أياه بقدر طاقته، ويبحث في ذلك مع المتميزين منهم إن كان الموضع يحتاج إلى فضل بحث، وكان لا يقري أحد إلا وبيده نسخة من ذلك الكتاب يقرأه ذلك التلميذ، ينظر فيه ويقابل به، فإن كان من نسخة الذي يقرأ غلط أمره بإصلاحه، وكانت نسخ الشيخ مهذب الدين التي تقرأ عليه في غاية الصحة، وكان أكثر بخطه"(23).

ولما كان في سنة (613هـ /1225م) وذلك قبل وفاة الشيخ المهذب المعروف بالدخوار وقف داره بدمشق، وجعلها مدرسة يدرس فيها من بعده

صناعة الطب، ووصى أن يكون المدرس فيها الحكيم شرف الدين علي بن الرحبي، لما تحقق من علمه و فهمه، فتولى التدريس بها مدة(24).

ويصف لنا الجورجاني حلقة ابن سينا في همدان في تدريس طلابه قائلاً: "كان يجتمع كل ليلة في داره طلبة العلم، وكنت أقرأ من كتاب الشفاء وكان يقري غيري من كتاب القانون"(25).

ومما ذكره ابن أبي أصيبعة في ترجمته لابن القف، يوضح فيها طريقته في تدريس الطب يقول: "كنت نتبين فيه النجابة من صغره، حفظ الكتب الأولى المتداولة حفظاً، كمسائل حنين في الطب للمتعلمين، والفصول، وتقدمة المعرفة لأبقراط، وهذه الكتب مع شرح جالينوس. وقرأ بعد ذلك في العلاج من كتب الرازي ما عرف به الأقسام الأسقام وجسيم العلل في الأجسام وتحقيق معالجة ومعاناة المداواة"(26) وعمل بالبيمارستانات تحقيق مما درس. والقمري كان يحرض على وجوب قراءة الكناشات الطبية النافعة، واحترام الأفاضل من الحكماء معلمين ورواده فيقول: "وكانت همتي على خدمة من تمسك بالطب بأدنى علقة، فضلا عن المتبحرين والمبرزين فيه

حتى أحظت بمكنون خزانته، وأطلعت على أسراره ومنانيه، وأدركت منه ما رجوت معه الكفاية، وقدرت به بلوغ الكمال والغاية"(27).

من هذا نتبين أن تدريس الطب كان قائما في الدول الإسلامية على احتكاكُ دائم، وتواصل مستمر بين الطلاب ومرضاهم، فكان الطلبة يقابلون ما تلقنوه نظريا بما يشاهدونه بأم أعينهم، وهكذا تخرجت طبقة من الأطباء الذين لم يشهد العالم آنذاك مثيلا لهم إلا في العصر الحديث. فلقد كانت التجربة العملية في العالم الإسلامي تسير مع العلم جنبنا إلى جنب، وتجابه النظريات على أسّرة المرضى، حقائق المعاينة والكشف، وحقائق التجارب، فتفنّد الظواهر تفنيدا علمياً، وتشبع الحالات المستعصية بحثا ونقاشا وعلاجا تفصيلاً وشرحاً، بعكس ما كان يجري في بلاد الغرب، حيث كانت النظريات الجافة تملأ عقول رجال الكنيسة، وتحول دونهم ودون البحث والتجربة(28).

* أعلام الطب الإسلامي

ويعد الرازي (313-251هـ/865-925م) أهم من وضع الأسس الراسخة والقواعد الثابته لتعليم الطب وممارسته، ليس في العالم الإسلامي فحسب، بل وفي أوروبا في القرون الوسطى حتى عصر النهضة. ويعتبر الرازي أول من أظهر أهمية الطب السريري والنفساني، وكتب عنهما باستفاضة لما لهما من أثر في العلاج، وهو من وضع أصول فلسفة النظريات الطبية في هذه الحقبة، وساعد على تطور أدب الطبيب، وأهمية العمل في البيمارستانات، والتجربة الطبية، ومحاربة الشعوذة في صناعة الطب، والرفع من مستوى التعليم الطبي برفع مستوى مزاول المهنة علمياً وأخلاقياً ففي كتابه المرشد شرح ونقد فصول أبقراط مبديا أراء أصيلة في تجارب الطبيب منها أهمية علاقتة مع مرضاه باعتبار كل مريض فرداً مستقلاً عن سواه له شخصيتة وتدبيره الخاص الذي ينفرد به بالنسبة لتاريخه وعاداته وبيئته، تلك الأمور التي طالما يغفلها ممارسو المهنة في عصرنا الحاضر. (29)

ونستطيع أن نستشف الكثير من أسلوبه في تعليم الطب وممارسته من موسوعته المسماة " الحاوي في الطب " والتي قضى ردحا طويلا من الزمن في أعدادها و جمعها حتى حيث تكشف لنا عن الصورة الحية لطريقة

تدريسه هذه الصناعة ضمنها آراء من سبقوه وتوصياتهم منقذا أو مؤيدا مع التزامه بالتعبير عن مشاهداته وتجاربه الخاصة الأمر الذي اصبح علامة مميزة في طريقة وأسلوب التعليم في الطب الإسلامي.

المرحلة الثانية :في هذه المرحلة بلغ العلم العربي في الطب بمختلف ابعادة قمة ازدهاره بالمشرق العربي الاسلامي خلال القرنيين الرابع والخامس الهجري / العاشر والحادي عشر

الميلادي فكان هو العصر الذهبي للحضارة الإسلامية، فقد كان أعظم أعلامه ابن سينا عالم المسلمين وفيلسوفهم الأكبر فقد كان كتابه (القانون) في الطب أشهر من كتاب الرازي وكان أعظم من الفارابي في الموسيقي الذي كان وثيق الصلة بالعلم والفن عند العرب واليونان، ومن كتبه المعروفة الشفاء وهو موسوعة في ثمانية عشرجزءا وقد لخصه في كتاب النجاة إلى جانب تسع وسائل في الحكمة والطبيعيات وله أخيرا كتاب الاشارات والتنبيهات، ومن هذه الاشارات القواعد الطبية التالية

* ومن قواعد الطب الإسلامي

وهنا نحاول أن نلخص آراء الأطباء المسلمين المنهجية في طريقة تعليمهم للطب في النقاط منها الآتية :

يقول الرازي إن قليل المشاهدة المطلع على الكتب، خير ممن لم يعرف الكتب، على أن لا يكون عديم المشاهدة (30). وهو يعني بذلك أن التعليم النظري المدرسي أساس لمزاولة المهنة. وهو يتقدم على التجربة. ويقول أيضاً من قرأ كتب أبقراط ولم يخدم، خير ممن خدم ولم يقرأ كتب أبقراط (31).فهو هنا ينفي الطب المبني على التجربة الفردية دون فكرة أو قاعدة علمية. كما يؤكد على ضرورة التعلم عند كبار المعلمين والأساتذة.

والواقع أن التجربة الإنسانية الطويلة في حقل التعليم الطبي توصلت في النصف الثاني من القرن العشرين إلى هذا المفهوم، وراحت تطبقه في أكبر كليات الطب العالمية، فلم يعد الطالب يرتاد المشافي من السنة الأولى للدراسة، بل بعد مضي ثلاث سنوات، أي بعد أن يكون قد تمرس في العلوم النظرية الأساسية. وتلك فكرة أنتبه إليها الرازي منذ قرون بعيدة (32).

أهم الأمور التي يجب أن يعر فها الطبيب نظريا، حيث يقول الرازي أطلب من كل مرض هذه الرؤوس: أولا التعريف، مثل أن تقول أن ذات الجنب هو اجتماع حمى حادة مع وخز في الأضلاع وضيق في النفس وصلابة في النبض وسعلة يابسة في أول الأمر. ثم اطلب العلة والسبب، مثل أن تعلم أن سبب ذات الجنب ورم حاد في ناحية الغشاء المستبطن للأضلاع. ثم أطلب هل ينقسم إلى سببه أو نوعه أم لا، مثل أن تقسم ذات الجنب إلى الخالصة وغير الخالصة، ثم أطلب تفصيل كل قسم من الآخر، ثم العلاج، ثم الاستعداد .. إلخ.(33) وواضح من هذا التقسيم أنه لا يفترق عما تفعله الجامعات الطبية حالياً أثناء الدراسة النظرية إلا قليلاً، فالتعريف في البداية، ثم الأسباب، ثم التشريح المرضى، ثم الأشكال السريرية، ثم التشخيص التفريقى، ثم المعالجة، ثم الإنذار.

ولم يكن الاهتمام بالطب النظري يعني عدم الاهتمام بالطب العملي أو التقليل من أهمية التجربة، بل على العكس فأن كثيرا من الأطباء يرى أن التجربة هي أساس من أسس تعلم الطب، وهذا يتضح من خلال سؤال الخليفة الواثق لطائفة من الأطباء : كيف يتم إدراك علم الطب، فقال قائل منهم : إن الطريق الذي يدرك به الطب هو التجربة. وإن التجربة ترجع إلى

مبادئ أربعة، هن له أوائل ومقدمات، وبها علمت وصحت، وإليها تنقسم التجربة. قسم من تلك الأقسام طبيعي، وهو ما تفعله الطبيعة في الصحيح والمريض، من الرعاف والعرق والإسهال والقئ التي تعقب في المشاهدة منفعة أو ضرراً. وقسم عرضي، وهو ما يعرض للحيوان من الحوادث والنوازل، وذلك كما يعرض للإنسان أن يخرج أو يسقط، فيخرج منه دم قليل أو كثير، أو يشرب في مرضه أو صحته ماء باردا أو شرابا، فيعقب في المشاهدة منفعة أو ضرراً. وقسم إرادي، وهو ما يقع من قبل النفس الناطقة، وذلك كمثل منام يراه الإنسان، وهو أن يرى كأنه عالج مريضاً به علة مشاهدة معقولة بشيء، أو يخطر مثل ذلك بباله في حال فكره، فيتردد ويعطب ظنه بعطبه فيجربه، بأن يفعله كما يرى في منامه فيجده كما يرى أو يخالف ذلك، ويفعله مرارا، فيجده كذلك. وقسم هو نقل، وهو على ثلاث أقسام: إما أن ينقل الدواء الواحد من مرض إلى مرض يشبهه، كالنقلة من ورم الحمرة إلى الورم المعروف بالنملة، وإما من عضو إلى عضو يشبهه، وذلك كالنقلة من العضد إلى الفخذ، وإما من دواء إلى دواء يشبهه كالنقلة من السفرجل إلى الزعرور في علاج الانطلاق البطنى. وكل ذلك لا يعمل به عندهم إلا بالتجربة، فيذهبون في ذلك إلى القياس والاستدراك(34).

من الجوانب الأخرى التي يجب أن يعرفها الطبيب ويدركها مراعاة الحالة الصحية للمريض، إذ على الطبيب أن يدرك الأمراض النفسية وعلاقتها بالعلاج الجسمانى، ومدى أثر ذلك في العلاج. في هذا الصدد يقول الرازي: ينبغي للطبيب أن يوهم المريض بأنه على صحة جيدة، وإن كان غير واثق من ذلك، فمزاج الجسم تابع لأخلاق النفس (35).

ومن مراحل تعليم الطب ما يعرف بمرحلة "الامتحانات" الحسية حيث لا يسمح بمزاولة مهنة التطبيب إلا بعد أن يجتاز الطالب امتحانا رسميا. يقول الرازي في هذا المقام: "فأول ما تسأله عنه التشريح ومنافع الأعضاء، وهل عنده علم بالقياس وحسن فهم ودراية في معرفة كتب القدماء؟ فإن لم يكن عنده ذلك، فليس بك حاجة إلى امتحانه" (36).

كان الأطباء المسلمون يمتحنون المتقدمين إلى الجراحة في مادتي التشريح وعلم الجراحة (37). إضافة إلى أنهم كانوا يشترطون على من يمارس مهنة الطب أن يكون ذا صفات أخلاقية وروحية، وأن يتحلى بخصال منها أن يكون كتوما لأسرار المرضى، لا يبوح بشيء من أمورهم، وأن تكون رغبته في إبراء المريض أكثر من رغبته فيما يلتمسه من أجر، ورغبته في

علاج الفقراء أكثر من رغبته في علاج الأغنياء، إلى جانب ما يجب أن يتحلى به من ذكاء وفطنة وشدة ملاحظة تساعده على الفهم الجيد لما يعرض عليه من معلومات وحالات (38).

هذه بعض النقاط التي كانت تتبع لدراسة علم الطب عند الأطباء المسلمين، ومنها يتضح مدى دقة المنهج العلمي المتبع لديهم، والذي كان له دور كبير في تطوير علم الطب.

* الخلاصة

مر تاريخ المدارس الطبية في الحضارة الإسلامية بمراحل، المرحلة الأولى كانت من بداية القرن الأول الهجري إلى القرن الثاني المدارس الطبية في الدولة الإسلامية، هي المدارس القديمة مثل إنطاكية ومدرسة الرها وجنديسابور، وكانت إدارتها تحت أطباء نسطوريين، أما المرحلة الثانية فكانت من القرن الثاني الهجري إلى القرن الثالث الهجري، بدأت تظهر مدارس طبية إسلامية صغيرة تحت إشراف أطباء أغلبهم نسطوريون، مثل مدرسة بغداد. وأما المرحلة الثالثة فكانت من القرن الثالث إلى ما بعد القرن

التاسع الهجري، وفي هذه المرحلة تبلور الطب الإسلامي كان هناك نوعان من المدارس الطبية العامة والخاصة التي أخذت في الانتشار في الأقطار الإسلامية تحت رعاية الخليفة أو الوالي، وتحت إشراف الأطباء المسلمين مثل مدرسة العضدي في بغداد، ومدرسة النوري بدمشق، وغيرها في الشرق والغرب من البلاد الإسلامية. أما النوع الثاني وهي المدارس الطبية الخاصة فكانت بداياتها في دار يوحنا بن ماسويه، وأخذت تنتشر بين الأطباء مثل مدرسة ابن تلميذ، وكانت في داره، ومدرسة الدخوارى. كانت طريقة التدريس في المدارس العامة تقوم على الاحتكاك الدائم والمتواصل بين الطلاب ومرضاهم، فكان الطلبة يطبقون ما تلقنوه نظريا بما يشاهدونه بأم أعينهم. فقد كانت التجربة العملية في العلم الإسلامي تسير مع العلم جنباً إلى جنب، وتجابه النظريات على أسرّة المرضى ترجح الظواهر ترجيحا علميا، وتشبّع الحالات المستعصية بحثا ونقاشا وعلاجا تفصيلا وشرحا. أي أن تعليم الطب في المدارس الطبية كان قائم على الجانب العملي والنظري مثل ما تنادي به الكليات الطبية اليوم.

والله أعلم.

والله ولي التوفيق.

----

(1) التوانسي، أبو الفتوح : أعلام الطب، الدار القومية (القاهرة، 1959 م) ص 32.

(2) ابن أبي أطيبعة : عيون الا نباء في طبقات الأطباء، دار الثقافة (بيروت، 1987) 1/ 38

(4) ابن أبي أصيبعه : المصدر نفسه، 1/ 40.

(5) نفس المصدر.54/1

(6) المصدر نفسه 1/ 124.

(7) المصدر نفسه. 1/ 156.

(8) المصدر نفسه.1/ 128

(9) حمارنة، سامى : عبقرية الحضارة العربية، ترجمة عبد الكريم محفوظ،دار الجماهيرية (بنغازى 1990م) ص255

(10) عيسى بك، أحمد : تاريخ البيمارستانات، دار الرائد (بيروت، ط(2) 1981م) ص 20-30؟

(11) ابن أبي أصبع : المصدر السابق، 1/ 329.

(12) عيسى بك : المرجع نفسه، ص 193-197.

(14) المرجع نفسه، ص 209-210

(15)المرجع نفسه، ص 159- 166

(16) محمد، محمود الحاج قاسم : الموجز لما أضافة العرب في الطب، مطبعة الارشاد (بغداد، 1974م) ص 123

(17) المرجع نفسه، ص 125. انظر إلى تراث الإسلام ماكس مايرهوف ترجمة جرجيس فتح الله، ص481.

(18) ابن أبي أصبيعه : المصدر نفسه، 1/ 244.

(19) حمارنة، خلف : الصناعة الطبية في العصر العباسي الذهبي، مجلة عالم الفكر، المجلد (10) العد (2) (الكويت، 1979م) ص 223.

(20) براوان، ادوارد : الطب العربي،ترجمة أحمد شوقي حسن :ومؤسة سجل العرب (القاهرة، 1966) ص75.

(21) ابن أبى أصيبعة : المصدر نفسه، 2/ 395ز

(22) براون : الطب العربي، ص103

(23) هونكة، زيغريد : شمس العربتسطع على الغرب، دار الجماهيرية، 19991م) ص 234.

(24) حمارنة : الصناعة الطبية، ص 320

(25) ابن أبي أصبيعه : المصدر نفسه، 2/ 377.

(26) ابن أبي أصيبعه : عيون الأنباء، 2/ 398.

(27) المصدر نفسه، 2/ 301).

(28) المصدر نفسه، 2/ 32).

(29) حمارنة : الصناعة الطبية، ص303.

(30) الرازى، أبو بكر محمد زكريا : كتاب المرشد أو الفصول، تقديم وتحقيق البير زكي اسكند (القاهرة، 1963م) ص118.

(131) المصدر نفسه، ص120

(32) صفو، عبد المنعم : تعليم الطب عند العرب، أبحاث الندوة العلمية للجمعية السورية لتاريخ العلوم،دار الجامعة (حلب،1980م) ص 279.

(33)) المرجع نفسه، ص280.

(34) المسعدوي : مروج الذهب 3/ 490

(35) صفوة : المرجع نفسه، ص 279.

(36) الرازى : المرشد، 120

(37) هونكة، زيغفريد :شمس العرب تسطع على الغرب ص206.

(38) قظاية، سليمان : الطبيب العربي على بن رضوان، المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة (تونس 1984) ص 60.